اللغة والفعل الاجتماعي: دراسة في خطاب التطوع

أ. ســـــارة قطـــاف

"لقد آن الأوان –ويكاد يفوت –أن نكفّ عن اعتبار اللغة مجرد وعاء للفكر، وهوما دأب عليه الميراث الفكري الإنساني قاطبة، ليست اللغة إناء نصبّ فيه التصورات الذهنية، والانفعالات الشعورية، والأحاسيس الغريزية، والاستلهامات الروحية...إنّها الفكر نفسه في حالة العمل "١

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سورة سبأ، الآية ٣٩]

تقديـــــــم:

يُعدُّ العملُ التطوعيّ وحجم الانخراط فيه رمزاً من رموز تقدم الأمم وازدهارها، فالأمة كلما ازدادت في التقدم والرقيّ، ازداد انخراط مواطنيها في أعمال التطوع الخيري. كما يعد الانخراط في العمل التطوعي مطلب من متطلبات الحياة المعاصرة التي أتت بالتنمية والتطور السريع في كافة المجالات.

تُحاول هذه الورقة أن تتناولَ بالدراسة قضيةً مهمةً من قضايا المجتمع، تُؤسس للتكافل بين أفراده وشدِّ عُرى التواصل بينهُم، ألاَ وهي العملُ الاجتماعيُ التطوّعيُّ، تناولناها من جهة اللغة،مُحاولين الربط بين بنية الخطابِ وقضايَا المجتمع،أورصداً منّا لمظاهر التفاعل بين الخطاب اللغوي والمجتمع،«فاللغة ذات تأثير عميق في مسالك الحياة الاجتماعيةِ والسياسيةِ والثقافيةِ...وللخطاب اللغوي تأثير في إحداثِ التغييرِ الاجتماعي٢، وفي الانتقال السياسي ؛ بل اللغةُ جزءٌ من الحياةِ الاجتماعيةِ، فبينها وبين عناصرِ الحياةِ الاجتماعيةِ الأخرى علاقة منطقية جدلية، وفي كلّ تحليلٍ خطابي تُرجّح كفّةُ اللغة، ويتقدّم الخطابُ اللغوي بوصفه الناطق الرسمي باسم المجتمع وقضاياه وظواهره »٣.

لا يُتصوَّرُ للعمل التطوعي وجود إلا من خلال خطابٍ لغوي يصفُ ويُفسر قيمة الفعل الاجتماعيِ التطوعي، وهكذا ارتبط الخطاب اللغوي بالتغيرِ الاجتماعي وبغيره، فلم تعد اللغة وسيلة للتفكير والتعبير فحسب، ولكنّها أصبحت أداة تغيير ووسيلة تأثير في العالم٤.

أولا - الفعل الحضاري الثقافي للغة:

إنّ أيّ تحول تاريخي وحضاري مرتقب يمرّ من هنا، لأنه إذا «أردنا أن نعطي فعالية لعملنا الجماعي وإبداعية حقيقية لممارستنا السياسية والثقافية فلا بد من ثورة ثقافية تعم المجتمع بجميع فئاته»٥.

تمثل اللغة أداة رئيسة في تشكيل الوعي وبناء الذات. إذ هي وسيلة الفرد للتعرف على العالم وتحصيل المعرفة؛ فاللغة ليست وسيلة للتواصل ووعاء للفكر فقط، ولكنها، بالإضافة إلى ذلك، أداة تمكن من تحقيق الذات والاندماج في المجتمع.« ولا شك أن اللغة سيكون لها دور مهم في إشعال جذوة الإبداع الثقافي. مما يستوجب اعتبارها مدخلا أساسيا لتنمية الإبداع الفكري»٦.

ثانياً -الفعل الاقتصادي التنموي للغة:

إنّ تعقد الحياة الاجتماعية وتطور الظروف المعاشية والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والأمنية والتقنية المتسارعة تملي علينا أوضاعاً وظروفاً جديدة تقف الحكومات أحياناً عاجزة عن مجاراتها. مما يستدعي تضافر كافة جهود المجتمع الرسمية والشعبية لمواجهة هذا الواقع وهذه الأوضاع. ومن هنا يأتي دور العمل التطوعي الفاعل والمؤازر للجهود الرسمية.

وقد أثبتت التجارب أن بعض الأجهزة الرسمية لا تستطيع وحدها تحقيق كافة غايات خطط ومشاريع التنمية دون المشاركة التطوعية الفعالة للمواطنين والجمعيات الأهلية التي يمكنها الإسهام بدور فاعل في عمليات التنمية نظراً لمرونتها وسرعة اتخاذ القرار فيها. ولهذا اعتنت الدول الحديثة بهذا الجانب لمعالجة مشاكل العصر والتغلب على كثير من الظروف الطارئة، في منظومة رائعة من التحالف والتكاتف بين القطاع الحكومي والقطاع الأهلي٧.

ومع تعقد الحياة في كافة جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والأمنية أضحى

على الدول التي تواجه هذه المعضلات البحث عن شريك آخر يساهم معها في المواجهة والتصدي لتلك المشكلات، فرأت إن فتح باب التطوع لكافة الفئات سوف يساهم في توفير فرص خدمة اجتماعية تقدم بشكل طوعي ومن خلال جمعيات ومنظمات متخصصة تستقطب تلك الفئات وتقوم بتدريبها وتأهيلها وتهيئتها للانخراط في الخدمات العامة.

إنّنا حين نتكلّم عن التنمية في سياق حديثنا عن اللغة، يجب أن نتذكر أنّنا بصدد صياغة مفهوم شامل للغة يضيف لها أفعال غير الوظائف التي اعتدنا دراستها، فاللغة يجب أن تكون أداة للتنمية، ولن تكون كذلك إلا إذا أنتجت معرفة ينتفع بها، سيما ونحن في عصر اقتصاد المعرفة، القائم على استثمار المعرفة ونشرها في عالم متكوكب٨، يقول حامد عمار في هذا الشأن: «ولا شكّ في أنّ أهم مقومات ظاهرة العولمة بالنسبة لمجا التعليم والثقافة هوطاقاتها المتنامية على إنتاج المعرفة وتجدّدها، والسرعة الفائقة في تطبيقاتها على مطالب الحياة المعاصرة »٩.

ويقول عبد السلام المسدي شارحا فكرة علاقة اللغة بالتنمية والنهوض المعرفي:«من له أدنى قدر من الحصافة يعرف أنّه من المتعذّر على أي مجتمع أن يؤسس منظومة معرفية دون أن يمتلك منظومة لغوية تكون شاملة، مشتركة، متجذّرة، حمالة للأبعاد المتنوعة فكرا وروحا وإبداعا، فاللغة هي الحامل الضروري المحايث لكلّ إنجاز تنموي»١٠.

يقول عبد السلام المسدي مرة أخرى متحدثا عن معادلة التنمية واللغة: «ثم متى يُسلِّم أصحاب الأمر في وطننا العربي بكل أطراف المعادلة: أنّ السيادة الاقتصادية رمز للسيادة السياسية، وأنّ السيادة السياسية مستحيلة بدون سيادة ثقافية لغوية، وأنّ امتلاك لغة الآخر سلاح ليس له اعتبار تقديري في السياسة والاقتصاد والثقافة إلا إذا استند إلى مرجعية لغوية قومية تعين الأنا على أن يقف ندا للآخر؟ ولكننا –في كلّ ماهوباد على السطح الدولي–أمّة بلا مشروع لغوي، نحن مجتمع يريد أن يبني منظومة تنموية، وهويغمض العين عن مأزقه اللغوي المكين١١.

وباختصار شديد إذا كان لعنصر الانسان، ضمن أركان التنمية، الدور الأساس في تطوير الإنتاج والزيادة في الخيرات، فإنّ للغة الدور الحاسم في تطوير قدرات الناس على التمرّس بالعمل، وعلى الرفع المستمرّ من كفاءاتهم، والإغناء المتجدّد للخبرة التقنية، وتعميق المعرفة العلمية، وتوسيع الثقافة العملية.١٢.

وأمّا في الاقتصاد فقد «تحوّلت اللغة ذلك الشيء غير المحسوس، المنتج للمعرفة وهي عنصر غير مرئي أيضا، إلى شيء يقاس بالعائد، كلّ ذلك حدث ويحدث في منظومة التغيّر العالمي التي اللغة وجه من وجوه تغيّره » ١٣، وهكذا أقحمت اللغة في دوامة العرض والطلب،وانحشرت ضمن مقاسات الجدوى الاقتصادية والمعايير الانتاجية١٤.

وهذا ما أكّده فلوريان كولماس في مؤلفه "اللغة والاقتصاد"، إذ نجده يحوّل اللغة إلى أوراق نقدية تزيد قيمتها باستعمالها وتصعد وتهبط في الأسواق حسب كفاءتها في انتاج وحمل المعرفة، يقول: «وإنّه لأمر حاسم في مجتمع المعلومات أن نملك أداة سريعة للمعلومات...ومن أجل التأكّد من أنّ اللغة تساعد على الوصول لهذا الهدف ولا تعوقه، فمن اللازم أن نطوّع اللغة ونصقلها، تماما مثلما تحتاج الأدوات المالية إلى تحسين لمصلحة زيادة الانتاجية. وبناء عليه فإنّ اللغات يمكن أن تعدّ مشروعات استثمار رأسمالي، بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى المجازي»١٥.

ثالثاً- الفعل الاجتماعي للغة :

ينعكس أيّ فعل حضاري وثقافي واقتصادي وتنموي على وضعنا الاجتماعي، وسنجد في هذا الانعكاس حضورا آخر للغة، وفعلا جديدا لها «فاللغة القومية ليست مجرد وسيلة تعبير وتفاهم بين إنسان وآخر، إنّها بحكم منطقها الداخلي، وتاريخيتها، وبناها، وتراكيبها، رابطة اجتماعية فكرية من الدرجة الأولى »١٦. ويعني ذلك أنّ هناك علاقة تجاذب بين اللغة وأهلها، وكلّما تحرّكت اللغة سلباً أوايجاباً تحرّكت بنية المجتمع.

يقول المسدي:« وبين اللغة والمجتمع علاقة متبادلة صميمة، فلا تتحرّك دون مجتمع يتحرّك، ولا مجتمع يتحرّك بدون لغة حركية تماثله وتواكبه...وهكذا فإنّ تحليل المشكل اللغوي هوفي الواقع تحليل للنسيج الاجتماعي الثقافي الأوليّ والأساسيّ الذي تقوم عليه الوحدة الثقافية القومية. وهذا التحليل ليس في واقعه لغوياً بقدر ماهوتحليل للمجتمع، وقُدراته، ومدى حيويته»١٧.

هكذا، فإنّ للغة القدرةُ على بناء تفكير جمعي، ومن خلال هذا التفكير نستطيع صناعة سلوك الإنسان، إننا في كثير من الأحيان نتصرّف بلغاتنا، ولغاتنا

هي مادة تفكيرنا، وتتوقّف مُخرجاتها على طريقة استعمالنا لها، يقول محمد الأوراغي متكلما عن دور اللغة في تنمية المجتمع:« ولها الدور المركزي في وقاية النسيج الاجتماعي من التفكك، وفي تهذيب السلوك الفردي، وترسيخ القيم الجمالية والحضارية الرفيعة، وخلق التوازنات النفسية، ونحوهذا من المجالات الكثيرة التي تتصل باللغة وبحملِها الثقافي اتصالاً مباشراً»١٨. باختصار، إنّ العمل التطوعي يزيد من لحمة التماسك الوطني. وهذا دور اجتماعي مهمّ يقوم به العمل التطوعي.

كيف نُحفّز المجتمع على العمل التطوعي باللغة؟

اتسعت حركة التفاعل الاجتماعي وتعقّدت شبكة العلاقات الاجتماعية، وتكاثرت منابر التواصل، فأصبحت اللغة منبرا للتحاور والاقناع ومخبرا لصنع السياسات...تخلع فيه اللغة على الأشياء والأفكار معاني وقيما تعلووتقوى بحسب ما تستعمل فيه من وسائل إقناعية وطرق حجاجية ترشد وتوجه وتقنع وتختصر على المخاطب السالك والمتاهات. وما زالت أشكال الخطاب تتنوع وتتطوّر بتطوّر وسائل الاعلام وقنوات ايصال الخبر مصحوبا بالوسائط المقرّبة والوسائل الداعمة، التي كشفت الستار عن أشكال جديدة من البلاغة الخطابية١٩.

لم يعد الأداء اللغوي التقليدي: ماذا نعلم أوكم نعلم؟ بقدر ماهوما نفعل بما نعلم؟ أي القدرة على تحويل ما نعلم إلى تطبيق عملي يغيّر واقعنا٢٠، واللغة –بهذا الاعتبار– أداة ٢١ قبل كل شيء، فهي ليست قيمة بحدّ ذاتها، وإنّما تنطوي على قيمة٢٢. «اللغات إنّما هي أدوات تستخدم في أغراض معينة، فإذا افترضنا أنّ هذه الأغراض يمكن إنجازها بنجاح وكفاءة نوعا ما، وإذا افترضنا أيضا أنّ مستعملي أداة ما ميّالون إلى اختيار الأداة التي تناسب أغراضهم أوأنّهم يُكيّفونها بطريقة تجعل مناسبتها لغرضهم أوأغراضهم، فإنّه يترتّب على هذا أنّ اللغات يجب أن تتغيّر كلّما تغيّرت الحاجات الاتصالية التي تستخدم هذه اللغات لإنجازها »٢٣.

إنّ المجتمع يعبر عمّا ينتجه من أنشطة في الثقافة والسياسة والاجتماع والعمران والابداع بالخطابات، وما يدخل تحتها من بيان وتواصل ونقد. فالظاهرة اللغوية رديفٌ للمعرفة، يقول المسدي:«الأشياءُ حقيقةٌ لها قدرُها، وقول الأشياء حقيقةٌ أخرى لها فعلها الذي به ننخرط في وجودها، وكيف نقول الأشياءَ حقيقةٌ ثالثةٌ يتناسب صنيعها فينا بمقدار غفلتنا عنه»٢٤، وفي هذا القول دعوةٌ إلى تقصي فعل اللغة في حقيقة الأشياء التي نحياها كلّ يوم. لا غروفي القول أنّه وفي حياتنا اليومية يوجهنا سلطان اللغة، ولنا في التاريخ حكاية على ما يُمارسه الأداء اللغوي من سُلطة على العقل البشري، يُروى أنّ سائلا أتى النبي صلى الله عليه وسلّم يطلب صدقةً،فاستعمل الرسول أداءً لُغويا مُغايراً، فقال له ماذا تملكُ في بيتك؟ قال: حِلسٌ نلبسُ بعضه ونبسطُ بعضه،وقعب (قدحٌ)نشرب فيه من الماء، فأمره بإحضارهما وباعهما واشترى لهما بقيمتهما فأسا وحبلا وأمره بالاحتطاب، وأن لا يرينّه خمسة عشر يوما. فتحوّل بعدها ذلك السائل إلى قوي عزيز. والعبرة هنا أن ننظر إلى سلطان اللغة كيف يصنع حياتنا، فكلّما وجدنا الداء اللغوي الأمثل كلّما اقتربنا من ملامسة الواقع ومعايشته وتسيير وتيسير حياتنا.

إنّ هذا الموقع المحوري للغة أهّلها لتكون أداة فعالة لتغيير الواقع وحلّ المشكلات وتوسيع دائرة الممكن والابتكار وصناعة المعرفة، يقول عبد السلام المسدي مؤكداً قدرة اللغة –كمنظومة أدائية – في التعبير عن قيمنا وفي التغيير والفعل:« فلا مجال لأيّ مجموعة بشرية أن تتشبّع روح العصر، وتتناءى في استسقاء مناهل التفكير العلمي، وتسافر إلى أقاصي العقل الراجح في العيش والكسب والتدبير، إلا بمنظومة أدائية في مجال التعبير تسكبُ فيها عُصارة الحياة، وتصنع منها مراجعها في السلوك، ومعاييرها في القيم »٢٥. ولعلّ هذه جزئية مهمة لفهم تغيّر القيم عبر وسيط اللغة: إذا تغيّر الأداء اللغوي تتغيّر القيم ٢٦.

والآن: كيف تساهم اللغة في بناء خطاب ناجح يروم في أساسه نجاعة العمل عبر تحقيق دعواه ووظائفه؟

إن العامل بمجال التطوع مطالب بتعميق معرفته من خلال الانفتاح على مختلف المجالات الفكرية والمعرفية خاصة تلك التي لها اتصال مباشر بأداء رسالته الإعلامية مثل النظريات وعلم الاجتماع ونظريات التواصل. وهو مدعو كذلك إلى التمرس بطرائق التعبير وأشكال الصياغة ؛ لأن توصيل المضامين يتطلب إحاطة بوسائل الأداء اللغوي والأسلوبي؛ أي كل ما له علاقة بالصياغة التعبيرية المؤثرة. فما من شك أن امتلاك اللغة

والكفاية التواصلية يمكنه من توصيل رأيه بطريقة ناجعة ومؤثرة. إذ المضمون الجيد وحده لا يكفي؛ بل ينبغي أن ينضاف إليه الأداء الجيد إذا أردنا أن نضمن لخطابنا الفعالية المطلوبة والتأثير المأمول.

إنّ الخطاب رؤية معينة للغة المستخدمة في المجتمع أوطريقة في التعبير عن الفعل الاجتماعي، وهوبهذا المعنى عنصر يُشارك في تكوين الأحداث الاجتماعية، ويُسهم في إحداث تغيير معارف الناس ومواقفهم وقيمهم ؛ إذ النصوص التي تُخاطب المجتمع خطابا اجتماعيا محددا كالدعايات والاعلام وغيرها، كلّما عايشها الناس وألفوها أثرت في أذواقهم وهوياتهم. النص اللغوي فكر وفعلٌ ؛ بل هوقرين للفعل مُصاحبٌ له / مُحرّض عليه، يُواكبه، ويُوطئ له الطريق٢٧. وتجد الاشارة هنا إلى أنّ الاختراق بواسطة اللغة واستعمال ما تحمله من قوة المعنى التي تشكل سلطان السلوك يرتكز أساسا على استعداد إنساني بحت، ألا وهو" قابلية التأثر ".ولا يتحقق الإقناع هنا من خلال الاكراه، وإنّما يتحقق بقوة الحجة والقدرة على استنهاض السامع واستمالته بالطريقين العقلاني أوالوجداني أوبهما معا٢٨. بمعنى ربط الخطابات بواقعها الاجتماعي عبر اللغة ووساطتها الاقناعية، التي تبحث عن التأييد والاجماع العقلي بدل الاقناع البرهاني السلطوي٢٩.

ويمكن اختصار أهم عناصر التأثير في الخطاب المرغّب في التطوع في الآتي:

- التنويع في الطبقات الصوتية: الاعتماد على تحسين اللغة عبر التجانس الصوتي للتأثير في المستمع، وكذلك تكثيف اللغة عبر تقليص الجمل، واستخدام السجع والتقابل.
- انتقاء الكلمات العاطفية المؤثرة: ذلك أنّه إذا انعدمت الوجدانية ألغيت الإنسانية، وهنا يعمدُ العامل في هذا المجال إلى الأساليب التي تلعب على الأوتار الحساسة، وهنا قد يستحضرُ صورَ تعبر عن مأساة قرية، نجعل من خلالها رجل أعمال ما يتطوع لبناء قنطرة أوحفر بئر أوما شابه ذلك بمَ يعود على أبنائها بالنفع العميم.
- استدعاء القيم الأخلاقية والدينية لتقوية الخطاب: والتأكيد على دور العمل التطوعي في تأسيس وترسيخ وبناء أواصر التعاون التي حث عليها الدين. فالعمل الخيري التطوعي هو« بذل مالي أوعيني أوبدني أوفكري يقدمه المسلم عن رضا وقناعة، بدافع من دينه، بدون مقابل بقصد الإسهام في مصالح معتبرة شرعاً، يحتاج إليها قطاع من المسلمين »٣٠.

وللعمل التطوعي أصل شرعي ورد في مواقع كثيرة من القرآن والسنة، فبما أن المفهوم العام للعمل التطوعي هوبذل الجهد أوالمال أوالوقت أوالخبرة بدافع ذاتي دون مقابل، فهويُعد في ديننا الحنيف ركيزة أساسية في بناء علاقة الفرد المسلم بأخيه المسلم قال (ص): (المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا)، فالعمل التطوعي من القيم والخصائص الاجتماعية التي تساهم في شكل فاعل في تحقيق أهداف وطموحات الأفراد والمجتمعات.

ومن الآيات التي يُقيمُ بها العامل في المجال التطوعي الحجة في إقناع المتطوعين قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [سورة المائدة، الآية ٢]، وقوله أيضا عزّ وجلّ:﴿ فمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢]، وقوله صلى الله عليه وسلّم:(إن لله عباداً اختصهم لقضاء حوائج الناس حببهم للخير وحبب الخير إليهم أولئك الناجون من عذاب القيامة)، وقوله كذلك: (خير الناس أنفعهم للناس)، فهذه الآيات والأحاديث تُعدُّ مدخلاً يلج منه العمل التطوعي بأشكاله المتنوعة من العون والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك يبين عظمة الإسلام، وتأكيده على فعل الخير.

- تذكير المتطوّع بالآثار النفسية المنعكسة عليه بفضل التطوع: فالمتطوع يقدِّم جزءاً من جهده ووقته وماله في مقابل تقدم الآخرين واستفادة هؤلاء الآخرين تشكل بالنسبة إليه مصدر راحة نفسية، فيما على العكس العمل غير التطوعي (القسري والوظيفي) يحصل فيه الرضا النفسي لدى الشخص القائم به بمقدار ما يحصل هونفسه على المنفعة الناتجة عن هذا العمل، وإضافة إلى الرضا النفسي هناك "الرضا عن الذات" حيث يرفع العمل التطوعي مستوى الدافعية للعمل ويزيد من حماسة المتطوع كلما رأى الآثار الإيجابية والتطور الملحوظ لدى من يتطوع للعمل من أجلهم، وفي جانب آخر فان العمل التطوعي يخفف من النظرة العدائية أوالتشاؤمية لدى المتطوع نفسه تجاه الآخرين والحياة ويمده بإحساس

وشعور قوي بالأمل والتفاؤل، وكذلك فأن التطوع يهذب الشخصيَّة، ويرفع عنها عقلية الشح ويحولها إلى عقلية الوفرة مصداقاً للآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر، الآية ٩ [.ففي العمل الوظيفي يتحدد العمل بقدر ما يحصِّل العامل من مال ومنفعة ذاتية مادية بينما في العمل التطوعي لا حدود للعطاء.

- التصوير الفني والمجازات المبتدعة: فلغة الحديث مبنية على المجازات، و« البلاغة بهذا الشكل لا تبسط نفوذها وهيمنتها إلا من خلال النشاط اللغوي »٣١.
- صدق العاطفة: وقد يكون للكاذب تأثير في متلقيه، ولكن المقصود بالصدق هنا مطابقة كلام المتكلم لاعتقاد المخاطب، وليس مطابقته للواقع.
- الكارزيما ومكانة الخطيب الاجتماعية والسياسية: وهي عناصر مفيدة جدا والعلمُ بها يَفتح أبوابَ فَهم بنية الخطاب، ويُمكن تَقْسيم هذه النقطة إلى قسمَيْن: قسم يتصلُ بشخصية الخَطيب الناميَة في أعيُن المُخاطَبين وهي أكثرُ العناصر المذكورَة أعلاه، والقسم الثاني يتصلُ بالشخصية الجاهزة ويَدخلُ فيه شخصية الخطيب المَعهودَةُ في الأذهان والبيئة الثقافيّةُ.

إنّ الذي يطبع كلّ خطاب بميسم خاص هومقتضيات الخطاب ومُستلزماته التي يصنعها سياق الكلام ومقاصدُ المتكلم وظروف المقام، وكذلك بناء الخطاب وفق استراتيجية أوتخطيط حجاجي، يلجأ معه المتكلم إلى استعمال وصائلَ حجاجية تُساعده على بناء خطته الحجاجية وتوجيه عملية الفهم والتأويل لدى المخاطب٣٢.

يُعنى تحليل الخطاب أيضا بمواقع المتكلمين الاجتماعية وخصائصهم التلفظية التي تمنح خطابهم هوية تلفظية خاصة، فلكل خطاب اختيارات يختارها، ومواقع يتّخذها،وألفاظ يتوسّل بها، وأسلوب يميزه عن غيره من فنون الخطاب وأنواعه٣٣.

- الحوار: فجوهر اللغة هوالحوار ٣٤، اللغة سواء المكتوبة أوالمنطوقة أوالاشارية في كيفية تقديم العمل التطوعي.
- القدرة على الإقناع: فالموضوع المطروح ذوأهمية بالغة.. لما للخطاب من تأثير على شريحة واسعة من الناس فكلما تضمن عناصر تؤهله للبلوغ إلى عقل المخاطب نجحنا في التأثير الذي نأمله لواقعنا.. وخير شاهد على إخفاق الخطاب اليوم واقعنا المليء بالمتناقضات وكلها تدعي الصدق.

وليكون التأثير في الآخرين عميقاً واسعاً لابد أن يمتلك الملقي أهم عناصر البراعة في الحديث، التي منها الأسلوب الجذاب، والكلمات الجميلة، والتراكيب الرائعة، والصياغة البديعة المحكمة، مع ضرورة وعيه بحال المخاطبين لأجل مراعاتها، وغالباً ما يعود نجاح كثير من الخطباء والمبدعين ذوي الجمهور الحاشد إلى نجاحهم في استعمال اللغة، بحيث ينعمون بلغة بارعة رائعة تمكنهم من التعبير باقتدار عما يريدون إيصاله لمخاطبيهم. «فهدف فن الخطابة هوطلب تأييد العقول »٣٥. فاللغة تستطيع بناء قنطرة وهدم برج وحفر بئر وردم آخر عبر التأثير في الطرف الثاني لجره نحوالعمل التطوعي.

لذا فإنّ من أهم معوقات العمل التطوعي عدم توافر برامج خاصة لتدريب المتطوعين قبل تكليفهم بالعمل.

- **شعار التطوع:**

وينبغي، ههنا، التكثيف في الشعار والقوة في الرمز.

ومن أمثلة ذلك شعار:" أوقد شمعة"، وهولفريق تطوعي بمكة المكرمة، ومنبرهم شبكات التواصل الاجتماعي، وقد استمدّ اسمه من الحكمة الصينية المتداولة: (أوقِدْ شمعةً خيرٌ من لعن الظلام)، داعياً لاتخاذ سلوك إيجابي لتغيير الواقع بدلا من الاكتفاء بلعن الظروف، التي تقف حائلا أمام تحقيق أهدافنا، وتدعوللنظر للوجه المشرق للمشكلة بدلا من تكبيل أنفسنا بما يعوقنا.

نجد كذلك شعار فريق احتواء التطوعي: (لأنّ الأرض عطشى...ونحن المطر...كان العطاء غيمتنا)

وتعمل الصورة بجانب الكلمة على التأثير في المتلقي ودفعه إلى التطوع، نمثل لذلك بالصورة الآتية:

انطلاقاً من هذا الشعار أعدت الوزارة إطاراً منظماً للعمل التطوعي في الميدان التربوي يهدف إلى تعزيز المبادرات التطوعية للطلاب والطالبات وتفعيل رسالة العمل التطوعي وفق رؤية واضحة وأهداف وضوابط محددة وخطة مرحلية متدرجة، يتم تنفيذها في المرحلة الثانوية.

ترتيب الأفكار وتماسكها.

- تسهيل الملفوظ اللغوي لكوننا نخاطب العامة: إذ لا بد من تبسيط الأفكار في نشر ثقافة التطوع وتقديمها إلى الجمهور بأسلوب واضح. وما من شك أن اعتناء العاملين في هذا المجال بنشر الثقافة التطوعية سيزيد من إقبال الناس على هذا الصنف من الأعمال، وتأصيل قيم التطوع ومساعدة الآخرين فيما هويعود عليهم بالنفع، وعلى المجتمع بأسره.
- إدراك الخطيب للحالة السيكولوجية والاجتماعية للجمهور: وكجمهور عربي فإنّ أكثر ما يؤثر فينا هووتر العاطفة، والأسلوب الوعظي المسجع. ولا شكّ أن الذي يمسك بزمام الأمر يعرف فن التحكم في سياق انتاج الخطاب الدافع للتطوع، حتى يصبح ثقافة محركة للجمهور، وموجهة له الوجهة التي رسمها منتجوالخطاب.

الحث على العمل التطوعي في كافة الشرائع السماوية واعتباره نوعاً من الدعم والمؤازرة فيما بين البشر.

كذلك مراعاة الحالة الاجتماعية للمُخاطَب، فالخطاب الموجّه لميونير للمساهمة في بناء ملجأ للأيتام ليس هونفسه الذي نخاطب به أبناء الحي لتنظيف أزقة المدينة مثلا أوالتلاميذ في الاهتمام بقسمهم.

- الحديث عن نماذج مُشرفة عن العمل التطوعي والمتطوعين: هوانتقاء نماذج ملائمة تعكس تجارب إنسانية. التذكير ببعض المواقف النبيلة في تحبيب طبيعة العمل التطوعي من الناس. فاللغة تستطيع ليَّ الأعناق وجرها نحووظيفة العمل التطوعي عبر بناء هذا العمل ورسم صورة نبيلة لمن يقوم بها.وهكذا، تعدُّ القدوة والشاهد أهم الحجج في بناء الخطاب التطوعي.

خاتمة:

لا سبيل للنهوض بأوضاع المجتمع والمضي به نحوالأحسن ما لم نعمل على ترسيخ تقاليد تشجع على التطوع، بالإضافة إلى إشراك الراغبين من المبتدئين في ولوج هذا المجال في أعمال جماعية تيسر لهم شق طريقهم نحوخدمة ذواتهم ودفعها للأفضل من خلال خدمة المجتمع، إنها مسؤولية تجاه الأجيال بما يفضي إلى تكوين سيرورة تتأسس على تحاور الأجيال وتفاعل التجارب، يفيد فيها اللاحق من السابق، ويغتني ما راكمه الأول بإضافات من جاء بعده.

انطلقت، في هذه الدراسة، من تصور يرى أن العمل التطوعي شأن مجتمعي يُمارس من خلال اللغة، التي هي الوسيط الناقل والمُشجّع على فعل التطوع،ونظرا للأهمية القصوى التي تحظى بها مسألة التطوع، فإن الأمر يتطلب تضافر جهود مختلف الشركاء والفاعلين من أجل بلورة مشاريعَ وطنية ترى في العمل التطوعي رهانا مجتمعيا يأتي في مقدمة مختلف مشاريع الإصلاح التي يمكن أن تبلورها، وتدعواليها القوى الوطنية الحية. إذ ما من شك في أنَّ الاعتناء بأوضاع المجتمع يمثل البداية الحقيقية لكل تحول تاريخي وحضاري مرتقب.

هوامش:

١- عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص٢١ -١٣٤

٢- ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين اهتمام بعلاقة جديدة لم يتطرّق إليها دوسوسير: علاقة ممارسة اللغة بالتغير الاجتماعي، وقد بيّن تلك العلاقة فلاسفة لغة من أمثال أوستين وفيتغنشتاين وويتش الذين أكّدوا أنّ اللغة ليست انعكاساً مُباشراً للواقع، ولكنّها تُمارس وظيفة أكبر من ذلك في تشكيل الحياة الاجتماعية،عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي والسياسي، قضايا ونماذج من الواقع العربي المعاصر،ص٧.

٣- عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي والسياسي، ص٦.

٤- وتُعدّ هذه الوظيفة الجديدة من وظائف الخطاب اللغوي رأس الوظائف،وعليها بنى جون أوستين نظريته في أفعال الكلام، أوكيف تحقق الأشياء بالكلام. انظر: عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي والسياسي، ص١٤ (الهامش).

٥- عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، ص ٤٣.

٦- نبيل علي، الثقافة العربية في عصر المعلومات، ص١٩٠

٧- حميد بن خليل الشايجي، العمل التطوعي أهميته، معوقاته وعوامل نجاحه.الموقع الالكتروني: https://www.linkedin.com

٨- عمر برمان، فعل اللغة، تركيب مفتوح في اللغة والمعرفة والحياة، ص ٦٧.

٩- حامد عمار، مواجهة العولمة في التعليم والثقافة، مكتبة الدار العلمية، مصر، ط٢،٢٠٠٨،ص١٠٩ نقلا عن: عمر برمان، فعل اللغة، تركيب مفتوح في اللغة والمعرفة والحياة، ص ٦٧.

١٠- عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص٢١.

١١- المرجع نفسه، ص٢٢،٢١.

١٢- محمد الأوراغي، لسان حضارة القرآن،ص٤١.

١٣- نبيل علي، البرمجيات: البعد الاقتصادي، مجلة العربي، ع٥٤٣،فبراير ٢٠٠٤، ص١٣٦ نقلا عن: عمر برمان، فعل اللغة، تركيب مفتوح في اللغة والمعرفة والحياة، ص ٧٣.

١٤- عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص١٥٩.

١٥- فلوريان كولماس، اللغة والاقتصاد، ص٩٣.

١٦- عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص١٣٤.

١٧- المرجع نفسه، ص١٣٥.

١٨- محمد الأوراغي، لسان حضارة القرآن، ص٤٢.

١٩- عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي والسياسي، ص١٢

٢٠- عمر برمان، فعل اللغة، تركيب مفتوح في اللغة والمعرفة والحياة، ص٢٣.

٢١- اللغة أداة هوتعريف صحيح في السطح فقط ؛ تعريف آلي ميكانيكي؛ ذلك أنّ اللغة، في العمق، بنيات صوتية وذهنية تُوجه الادراك، وتتحكّم في إدراك العالم وتنظيمه وتقسيمه، اللغة تُمكّنك من النظر إلى العالم الخارجي والداخلي، تُجزئ لكَ الواقع، وتُنظّمه وتُقسّمه، إذا أسقطنا اللغة تلاشت صورُ العالم في الذهن ؛ لأنّ اللغة مفاهيم ذهنية مُجتزأة من الواقع العيني، ويبقى اختلاف اللغات لاختلاف طُرق التقطيع والاجتزاء والتقسيم.

٢٢- فلوريان كولماس، اللغة والاقتصاد، تر: أحمد عوض، ص٧٥.

٢٣- المرجع نفسه، ص٢٦٣.

٢٤- عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي والسياسي، ص١٥.

٢٥- عبد السلام المسدي، ما يُعلم وما يُقال، مجلة دبي الثقافية، السنة الثامنة، ع٨٩ ديسمبر ٢٠١١، ص٢٧، نقلا عن: عمر برمان، فعل اللغة، تركيب

مفتوح في اللغة والمعرفة والحياة، ص٢٧.

٢٦- عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص٢١٨،٢١٧.

٢٧- عمر برمان، فعل اللغة، تركيب مفتوح في اللغة والمعرفة والحياة، ص٣٨. يتعلم المرءُ القيمَ الجماليةَ والخُلُقية والدينيةَ والاجتماعيةَ والثقافيةَ بواسطة ألفاظ ومصطلحات تعبر عَن مَفاهيمَ تُرسَّخُ في الذّهن، وكلَّما ذُكر اللفظُ ثارَت تلك المَعاني. وتتغيرُ القيم من جيل إلى جيل بتغير الألفاظ والمصطلحات وإحداث عبارات وهجران أخرى، ويمكن تعريف القيم بأنها ما يرتبط به المرء من قَواعد في الأخلاق والثقافَة ويتخذه مرجعاً، أوهي الخصائص أوالصفات المرغوب فيها من الجماعة، والتي تحددها الثقافة القائمة مثل التسامح والحق والقوة، وهي أداة اجتماعية للحفاظ على النظام الاجتماعي والاستقرار بالمجتمع، وعرفوها أيضا بأنها: المبادئ والتعاليم والضوابط الأخلاقية التي تحدد سلوك الفرد، وترسم له الطريق السليم الذي يقوده إلى أداء واجباته الحياتية ودوره في المجتمع التي ينتمي إليه، وهي إلى جانب ذلك السياج المنيع الذي يحميه من الوقوع في الذنب، ويحول بينه وبين ارتكاب أي عمل يخالف ضميره، أويتنافى مع مبادئه وأخلاقه.

عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي والسياسي، ص١٦.

٢٨- عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، ص٢٩.

٢٩- المرجع نفسه، ص١٩.

٣٠- حميد بن خليل الشايجي، العمل التطوعي أهميته، معوقاته وعوامل نجاحه.الموقع الالكتروني: https://www.linkedin.com

٣١- عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي،ص٢٣.

٣٢- عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي والسياسي،ص١١،١٠.

٣٣- المرجع نفسه،ص١٣.

٣٤- عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي،ص٢٦.

٣٥- المرجع نفسه،ص١٩

مراجع الدراسة:

١- فلوريان كولماس، اللغة والاقتصاد، تر: أحمد عوض، مراجعة: عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر ٢٠٠٠.

٢- عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي والسياسي، قضايا ونماذج من الواقع العربي المعاصر، دار كنوز المعرفة للنشر، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٥.

٣- عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١١.

٤- عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط ٥___ ٢٠٠٦.

٥- عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩.

٦-عمر برمان، فعل اللغة، تركيب مفتوح في اللغة والمعرفة والحياة، منشورات ثالة، الجزائر، دط، ٢٠١٤.

٧- محمد الأوراغي، لسان حضارة القرآن،منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠.

٨-نبيل علي، الثقافة العربية في عصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،أفريل ١٩٩٤.

مواقع إلكترونية:

٩-حميد بن خليل الشايجي، العمل التطوعي أهميته، معوقاته وعوامل نجاحه.الموقع الالكتروني: https://www.linkedin.com